الفصل الأول
فى رحاب العلم والعلماء

● تنهض الأمم وتزدهر الحياة وينتشر العمران وتقوم الحضارات مرتكزة على منظومة القيم الإنسانية التى تُعلى قيم العلم والعمل ومكارم الأخلاق مشتملة على الإيمان الذى يفجر فى الإنسان طاقاته الخلاقة وقواه المبدعة التى تستعذب الكفاح والجهاد فى نصرة العقائد والمثل العليا ورفعة الأوطان وعزة الأمم، فى عالم تتدافع فيه الشعوب والأمم للفوز بالغلبة والسِّيادة، وما لم تتسلح الأمة بأسباب العزة والمَنَعَة تناهشتها الذئاب من كل جانب، وبات أبناؤها كالأيتام على مَآدب اللئام، أو كالشياه فى الليلة المطيرة كثيفة الغمام. يقول تعالى: ﴿ ... **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠]

– من أجل هذا جاء الإسلام العظيم بمنظومة قِيَمِيَّة تكفل لشعوبه وأمته النهضة والعزة والسيادة، لامتلاكها كل مقومات الريادة لبنى البشر من عقيدة صافية وشريعة إلهية وسطية تستجيب لفطرة الإنسان بلا إفراط ولا تفريط، وتحقق له السعادة الرُّوحيَّة والاستقرار النفسى، فليس ثمة صراع بين العقل والقلب ولا بين الدين والعلم ولا بين الرجل والمرأة، وإنما وفاقٌ وانسجام تام بين حاجات الجسد وأشواق الروح وبين وَهَج العقل وحرارة العاطفة، فضلاً عن البناء الأخلاقى الذى يصنع الإنسان الكامل فى رحمته وقوته وحَزْمِه وسماحته وسعة أفقه وصدقه مع النفس ومع الغير وتعاطفه مع جميع الكائنات فى وئام تامٍ مع المنظومة الكونية من بَشَر وحَجر ونبات وحيوان فى توازن بيئى عبقرى تَحارُمعه العقولُ المنصفة؛ ولذا ينتشر الإسلام صباح مَسَاءَ، ويكسب كل يوم أرضًا جديدة فى عُمق بلاد أعدائه برغم ضعف المسلمين وتخلفهم !!.

● نعم لقد جاء الإسلام لأمته بأسباب العزة والكمال الإنسانى وضمن للمؤمنين المخلصين المحبين لله ورسوله الملتزمين بشريعته السمحاء والمتخلقين بأخلاق الرسل والأنبياء، ضمن لهم التمكين فى الأرض والشهادة على البشر أجمعين، قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...** ﴾ [النور: ٥٥] وقال تعالى أيضًا: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...** ﴾ [البقرة: ١٤٣]

– وفى صدارة الأسس التى هى ضرورة للإيمان الصحيح والعقيدة الصافية والحياة الكريمة يأتى العلم؛ ولذا كان أول هدى الإسلام فى تربية المؤمنين الأمر بالقراءة وطلب العلم النافع؛ لتحقيق التوحيد الخالص ونشر العمران فى الأرض؛ ليحقق الاستخلاف الإنسانى الصالح على هذه الأرض، فكان قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ – ٥] ويمجد الله تعالى القلم ويقسم به وبما يكتبه فيقول تعالى: ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [القلم: ١]، ويفرض الإسلام العلم فرضا على أبنائه فى مختلف شئون الحياة، وبما يصلح دين المؤمنين ودنياهم، كما فى قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقا إلى الجنة».

● أمَّا المعلم فله الثواب العظيم والدرجات العُلا مع الشهداء، وما جاء فى القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية فى تمجيد المعلمين والعالمين يجعل من رسالة العلم والعلماء مثلاً أعلى فى دُنيا الناس ومثالاً عبقريًا لمن ينشد الكمال والحظوة عند الله وعند الناس، وكيف لا وقد بعث الله تعالى رسله وأنبياءه هُداةً معلمين؟!.

– وما أجمل وما أعذب وما أبلغ وما أندى ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ بهذا الشأن حيث يقول عليه الصلاة والسلام: « إن الله وملائكته وأهل الأرض حتى النَّملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلون على معلم الناس الخير»؛ ولذا لم يكن غريبًا أن يُعبِّر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى بقوله:

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

● وقد رفع الله شأن العلماء العاملين وبوأهم منزلة عالية فقال تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ...** ﴾ وَقَرَنَ الله أهل العلم مع ملائكته باسمه الأعظم فى قوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ...** ﴾ [آل عمران: ١٨]

– وقد رغَّب المولى عز وجل فى طلب العلم ورَفَعَ درجة العلماء كما فى قوله: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة: ١١] وأيضًا فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ...** ﴾ [الزمر: ٩]، وأمرنا – عز وجل – بالاستزادة من طلب العلم والمداومة على مذاكرته فقال تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤] كما أمرنا المصطفى بذلك أيضًا وطلب العلم من المهد إلى اللحد، قبل أن تكتشف التربية الحديث نظرية (التعليم المستمر).

– وقد حث الإسلام على ضرورة طلب العلم النافع لبنى البشر وإسعاد الإنسان وتحقيق التكامل والإنسجام بين مختلف الموجودات أو ما يسمى الآن (التوازن البيئى)؛ ولذا جعل الإسلام طلب العلم باسم الله الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، فلا يكون العلم ومنتوجاته فى القتل والإبادة وإفساد الحياة وتدمير العمران واغتيال الكائنات وتلويث البيئة وإيذاء الحيوان والطير والشجر، وقد نبَّه شاعر النيل حافظ إبراهيم على هذا المعنى فى مناشدة أبناء الوطن على ضرورة اقتران العلم بالأخلاق الصالحة حين قال على لسان مصر:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدي

● ولقد خص الله تعالى عباده المؤمنين وجنده الموحدين على الأخذ بأسباب القوة وإعداد العدة لدرء خطر الأعداء الطامعين في خيرات الأمة التواقين لإذلالها وإعلاء قيم الشيطان والطغيان، قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴾

[الأنفال: ٦٠]

– ومن أهم أسباب القوة العلم، وبخاصة فى عصرنا الحالى – وقد تشرذم المسلمون فى عصرنا الحاضر وذهبت ريحهم، وتخلفوا عن ركب الحضارة وصارت الأعداء تتداعى عليهم كما تتداعى إلى قصعتها كما وصفهم الحديث النبوى الشريف فى بلاغة بليغة وبيان عبقرى ناطق بحال أمة الإسلام فى هذا العصر، ومن ثَمَّ كان لزامًا على أبناء الأمة النابهين فى مختلف أقطارها وبخاصة فى مهد الإسلام وبلاد الحرمين الشريفين أن يشمروا عن ساعد الجد، استجابة لنداء الإسلام بالأخذ بأسباب القوة لنهضة الأوطان الإسلامية بالعلم والعمل والبحث عن مكامن القوة فى الأمم التى سبقتنا فى مضمار المدنية والعمران، والسَّعى الحثيث فى طلب الحكمة فى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن الحكمه ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها كما علمنا الهدى النبوى الشريف.

* * *